ميونخ ومورافيا وزعيتر...

بقلم نبيل المهايني

تختلف عملية ميونيخ عن غيرها من العمليات التي قامت بها المنظمات الفدائية بنوعية ردود الافعال التي اثارتها . واذا كان الحكم على صلاحية العملية لا يحق الا لمن يملك في يمينه قلم التاريخ ، فان من الضروري والواجب معالجة ردود الافعال على اختلاف انواعها واتجاهاتها ، خاصة الآن وقد بدات العواطف التي اثارتها العملية تعود الى ابعادها العادية . انها مهمة تقع على المفكرين والمثقفين قبل غيرهم : فان ننتظر الامر من اجهزة الاعلام او غيرها من الاجهزةالرسمية يعني قبل كل شيء انتظار العدم والفراغ . ويكفينا القول ان مخطط هذهالاجهزة بدأ الآن يتخذ الاتجاه الذي كانسليما اتخاذه في الـ ١٩٤٨ او في الـ ١٩٥٦ على ابعد تقدير . هذا ليس تشهيرا بهذه الاجهزة العربية ، فكلنا نعرف ان لهذا الشر اصولا كثيرة . على اية حال المهمة تقع الآن في الدرجة الاولى على عاتق اولئك الذين ما زال الله الى جانبهم لانهم لم يتسمموا بالغازات البيروقراطية الساعية في المكاتب الرسمية .

فيما يلي نقدم مقالة للكاتبة الايطالية المعروفة (في ايطاليا مشهورة) ناتاليا جنزبرغ . وهي من اصل يهودي . والجدير بالذكر ان مقالتها اثارت كثيرا من ردود الفعل ضدها من قبل يهود ايطاليا . هناك ، كما هو واضح ، كثير من المغالطات ـ التي نستطيع ان نجزم بكونها صادرة عن حسن نية الكاتبة ـ ، الا ان الروح العامة للمقالة ايجابية وتستحق في راينا كل تقدير . ومما حثنا على ترجمتها كاملة كونها اصبحت اساسا اعتمدته كثير من المقالات الاخرى . من هذه المقالاتتلك التي كتبها الصحافي والاستاذ الجامعي ليو ليفي (ايطالي ـ اسرائيلي) ذو الميول اليسارية . ترجمنا هذه المقالة ايضا كاملة رغم قناعتنا التامة بوجود مغالطات ، مقصودة هذه المرة ، تتداخل في كثير من جوانبها . الا ان المقالة تشير الى انتهاء مرحلة في الدعاية الاسرائيلية ـ او بدء انتهائها ـ وقرب الشروع في تجريب مرحلة دعائية اخرى . ولذلك لا بد من قراءتها بتمعن ومعرفة الاتجاه الذي يمكن للدعاية العربية ان تنتهجه فيما بعد .

اما العمل الثالث الذي نسوقه في هذا المجال فهو حديث كنت قد اجريته مع الكاتبة الايطالية داتشا ماراييني ، زوجة البرتو مورافيا، حول عملية ميونيخ وهو ينشر للمرة الاولى . واسوقه الآن لانه صورة صادقة عن موقف اليسار الفكري في ايطاليا من عملية ميونيخ والفداء بصورة عامة .

اما في القسم الثاني من هذه الرسالة فقد حاولنا تقديم ترجمة للنص التابيني الذي كتبه البرتو مورافيا بعيد وفاة الشهيد وائل زعيتر الذي اغتالته المخابرات الاسرائيلية في روما ضمن حملة الانتقام لعملية ميونيخ . ومن المعروف ان وائل كان يمثل منظمة فتح في ايطاليا . لكنه كان كذلك من خيرة الشباب العرب المثقف في روما . وكان الشهيد قد دفع الى مجلة « لسبرسو » المعروفة بمقالة قبيل وفاته ونشرت حالا بعد موته تحت عنوان « وصية مناضل فلسطيني » ، وذلك الى جانب مقالة مورافيا التابينية . ونحن ننقل ترجمة كاملة لمقالة وائل ليس تخليدا لذكراه وحسب ، بل لان في المقالة ما يشير الى قمة النضج الفكري ـ الدعائي لدى المثقفين العرب في الغرب . واصف هذا الفكر بانه دعائي من حيث وظيفته ، لان السمة الاساسية في وائل هي صدقه وبعده عن الدهاء الكيافيللي . رحمه الله ورزقنا كثيرين من امثاله . وارجو ان يتحمل القارىء الكريم كذلك مشقة قراءة الكلمة التابينية التي كتبتها عشية وفاة وائل وكنت لا ازالتحت اثر الصدمة ، هذه المرة تحية لذكرى وائل وليس لان في المقالة ما ينفع ، اذا استثنينا بعض المعلومات التي تقدمها عن حياة الشهيد لمن لا يعرف عنه شيئا .

اليهــود

فيما يلي مقال ناتاليا جنزبرغ المنشور في مجلة « لاستامبا » بتاريخ ١٤ ـ ٩ ـ ١٩٧٢ :

بعد احداث ميونيخ بيوم اتصلت بي جمعية الصحافة الكاثوليكية وقالوا انهم يحضرون التحقيق حول المذبحة وطلبوا مني ابداء رايي . رفضت الاجابة . قلت اني لا اجيب ابدا على اسئلة التحقيقات الصحفية . لان لفظ اربع جمل على الهاتف يبدو لي امرا غبيا وغير ذي نفع . غير انه عاودتني بعد ذلك الرغبة في الاجابة على الصحافيين الكاثوليك بمقالة مطولة . لم يكن لديّ راي واحد اعبر عنه ، بل كانت لديّ آراء عديدة ، كما اني رغبت في جمع خواطر عديدة كنت اراها مبعثرة لديّ . وها انذا اجيب هنا .

عندما تحدث مصيبة ما في العالم ، يخطر لنا ان نتساءل كيف نتصرف نحن بالذات لو كنا الابطال ، اي اذا كانت لدينا المقدرة على القيام بامر ما . وبما ان السلطة بعيدة عن ايدينا فان هذه الافكار تبقى خيالات فارغة . بيد اني ساقول حتى في هذا الحال ، حال الخيالات الفارغة ، كيف كان بوسعي التصرف خلال احداث ميونيخ لو كانت سلطة العمل في يدي .

لو كنت غولدا ماير لاطلقت سراح الـ ٢٠٠ معتقل ، ذلك كما طلبالفدائيون . يقولون ان علىالانسان الا يخضع مطلقا لشروط الثار. لكنه يبدو لي انه لا بد حتى من قبول شروط الثار في حال وجود مصيبة كبيرة مشتركة . ويقولون انالمئتي سجين سيمسكون بابرياء آخرين ويزرعون مذابح اخرى لو اطلق سراحهم . لكن العالم اليوم مبني بطريقة كوارثية وبشكل لا بد معه في التقرير مرة بعد مرة ودقيقة بعد دقيقة كيف ندافع عن انفسنا وعن من ندافع . واظن انه كان لا بد من انقاذ اولئك الرهائن التسعة وانه كان لا بد من ترك كل اعتبار آخر جانبا . واظن ان غولدا ماير لو اطلقت سراح المئتي سجين فانها كانت ستقدم للعالم درسا في القوة وليس درسا في الضعف . او على اقل تقدير ، درسا في القوة الوحيدة التي من المشروع ان يعتقد بها الانسان ، لانها القوة التي تهزأ بالانتصار وهي على استعداد للخسارة، ولانها القوة التي لا تكمن في السلاح او في البترول او في الكبرياء ،

بل تكمن في النفس .

ولو كنت رئيس الشرطة الالمانية ، لتركت الفدائيين يسافرون الى حيث يشاؤون سليمين من اي أذى ومعهم رهائنهم . فلو كانت هنـاك ذرة واحدة من امكانية انقاذ واحد من الرهائن فعلى الجميع ان يعتبروا تلك الذرة أمرا جوهريا .

ولو كنت رئيس الاولمبياد ، لكنت قد اوقفت الاولمبياد لانه مـن الواضح ان لا معنى لها على الاطلاق بعد ذلك .

وفي النهاية ، لو كنت رئيس دولـة ما ، لطلبت من اميركا ان تنسحب من الفيتنام . كنت ساطلب منها ذلك قبلا بالطبع ، لكنـي ساطلبه في هذه اللحظة على وجه الخصوص . لا اعتقد ان الاطفـال الفيتناميين مختلفون عن الرهائن التسعة الاسرائيليين . الفرق الوحيد هو التالي ، وهو اننا اعتدنا جميعا رؤية الاطفال الفيتناميين وهـم يموتون ، بل اننا اعتدنا حتى ان نرى كيف يموتون ، بما اننا رأيناهم من غير ان يرف لنا جفن وهم يموتون امامنا على شاشات السينمـا والتلفزيون . لكن الامر يتعلق بعادة رهيبة . وكون الفيتنام مسرحـا للحرب بينما يريدون للملعب الاولمبي ان يكون ما يسمى بجزيـرة سلام لا يشكل في رأيي فرقا أساسيا . بل انه من الزائف ان يعتقـد الانسان بامكانية وجود جزر سلام في العالم مثل عالمنا . فضـلا عن ان مصائر البشر اليوم متشابكة ومترابطة بشكل لا بد معه لحـرب تنشب في بقعة من بقاع الارض من ان تنشر يوميا لامبالاة واعتيـادا وعائلية مع المذابح . ولكن لو سحبت اميركا في هذه اللحظة قواتهـا من الفيتنام فان ميتة اولئك الرهائن الاسرائيليين التسعة لن تكـون عقيمـة .

عندما افكر بالفدائيين اشعر وكانـي احس برعب لاانساني . لا يمكن لمثل هذا الرعب اللاانساني الا ان يكون مستوحى مـن وجـود يأس لاانساني . وعندما نتعرف الى معالم اليأس اللاانساني فاننـا نشعر بنفسنا والشاعر المعتادة تزول منها ، فلا نشعر بعد بالبغضـاء او بالاحتقار او بالشفقة . لان روحنا تصبح حجرية . يبدو لنا اننـا نرى تحت خطواتنا صحراء من حجارة لا تنبت فيها بغضاء او احتقـار او شفقة ، كما لا تنبت الاشجار . وعندما نفكر بالفدائيين بهذا الرعب اللاانساني فاننا نصبح للحظات مثلهم شبيهين بهم وبالفكرة التـي كوناها عنهم ، نصبح من حجارة ونفقد شهيق الروح . علينـا اذن ان ندافع عن انفسنا ضد هذا الرعب اللاانساني لانه انحراف بالفعل.

لكن الفدائيين يعبرون على الارجح عن الحد الاقصى لياسنا نحن بالذات ، مع ان هذا اليأس ليس لاانسانيا ويقطر شفقة واحتقـارا ، وقد اعتدنا الحياة معه منذ زمن طويل . وهكذا فان الطريق لفهـم الفدائيين تكمن على الارجح في ياسنا نحن بالذات . انهم يبدون لنـا وكأنهم قادمون من عالم ليس عالمنا . لكن الدروب التي ساروا عليهـا حتى وصلوا الى مثل ذلك اليأس اللاانساني تبدو لنا دروبا لاانسانية وعسيرة على التفسير والفهم لمجرد انه لم يتفق لنا ان عرفناها عـلى الاطلاق ، كما اننا لم نتساءل على الاطلاق اذا كانت دروبا مختلفـة وبعيدة عن الدروب التي عبرناها نحن بالذات او اذا كانت شبيهة بها وقريبة اليها .

اننا لا نعلم الا القليل القليل عن الفدائيين ، غير اننا نعلم انهم على استعداد لهدر حياتهم ، وكذلك حياة الآخرين ، في كل برهـة . وعندما يهدرون حياتهم لا نفكر في الشجاعة ، وعندما يهدرون حيـاة الآخرين لا نفكر في القسوة . ولهذا يبدو لنا انهم مزودون بقوة لا يمكن الوصول اليها بواسطة الصوت . فمن المستحيل ان نطلب اليهم انقاذ الابرياء . لانه في الاماكن اللاانسانية وفي اماكن اليأس التي يعيشون فيها ، يبدو لنا انه لا يوجد مكان بعد للابرياء وللمذنبين، لانه ليس للعالم بعد هناك الوان البراءة والذنب ، ولان العالم مهجور ومقفر ولـه نفس اللون . لا يوجد فيه الا الموت وحياة اصبحت ليس الا مزقـة ترمى بحركة سريعة بما انها ليست أفضل من الموت او ان لها لـون الموت على اية حال .

انا يهودية ، ويبدو لي ان كل ما يتعلق باليهود يخصني عـلى الدوام . اني يهودية من جانب أبي وحسب ، لكني فكرت على الدوام ان جانبي اليهودي اكبر واثقل من الجانب الآخر . واذا ما صـدف والتقيت في مكان ما بشخص ما اكتشف انه يهودي ، فاني اشعـر بصورة غريزية بصلة ما مع ذلك الشخص . بعد هنيهة قد اجد انذلك الشخص كريه ، لكن حسا من المشاركة الغامضة يبقى سائدا لديّ . هذه سمة من سمات طبيعتي أجدها غريبة ولا تعجبني على الاطـلاق ، لانها تخالف مخالفة صريحة كل ما فكرت به خلال مجرى حيـاتي ، ولاني أعتقد انه لا توجد بين اليهود صلات ان لم تكن صلات سطحيـة الى أبعد الحدود ، ولاني اعتقد انه على البشر تجاوز حدود اصولهم . هذا ما أفكر به ، لكني عندما التقي بيهودي لا افلح في اسكـات حس التعايش الغريب والمعتم .

عندما عرفت عن مذبحة ميونيخ فكرت انهم قتلوا مرة اخـرى ابناء دمي . فكرت بهذا في بحر من الافكار الاخرى ، لكني فكرت به . وعندما فكرت به شعرت بالاحتقار نحو نفسي لانه تفكير لا بد مـن احتقاره . لا اعتقد على الاطلاق ان لليهود دما مختلفا عن دم الآخرين . لا أعتقد بوجود تقسيمات الدم .

اني يهودية وكانت لي تربية برجوازية . وقد زرعت هذه التربية البرجوازية في نفسي بعض الافكـار الزائفة . ولا بد اني بشكل ما استنشقت منذ طفولتي الاولى فكرة ان للبرجوازيين ولليهود حقوقـا على الآخرين وانهم متفوقون على الاخرين . لم يقل احد لي في بيتـي بالطبع شيئا من هذا القبيل ، بل انهم علموني تساوي الحقوق بيـن بني البشر . غير ان بنية تربيتي لا بد ان تحتوي فكرة ما عن هـذا التفوق والعلو . اننا نناضل حياتنا كلها في سبيل تخليصنا مـن مساوىء تربيتنا ، لكن مساوىء التربية تبقى مطبوعة في النفس كما تبقى مطبوعة رسوم الوشم . وما اكثر ما نحاول خلال سـن رشدنا ازالة رسوم الوشم تلك عن نفوسنا .

لقد فكرت على ما أعتقد ان ليهود اسرائيل حقـوقا وتفوقـا على العرب . بيد انه بدا لي مرة ان هذه الفكرة فكرة مرعبة . فنزعتها ودستها بغضب . ثم اني ادركت ان تلك الفكرة المرعبة كنت أنا التـي كانت تحميها كما لو كانت نبتة زرع على حافة نافذتي . وهكذا فمـع اني انتزعتها ودستها فاني لست واثقة كل الثقة من انه لم يبق لديّ بعض الشظايا المنتشرة منها . ان لافكارنا المرعبة فضيلة تعريفنا بطبيعة نفسنا الخفية . ففكرة ما مرعبة تنمو وتتوالد مـن غير ان تحمـل شيئا ما حولها على ان يزول ويتلاشى . انها تنمو وتتوالد الى جـانب افضل حوافزنا والى جانب تعطشنا للعدل وللمساواة ، من غير ان تزيل شيئا من تلك الحوافز ومن ذلك التعطش لكنها تحولها شيئا فشيئـا الى قبضة من هشيم عفن .

وان لافكارنا المرعبة ايضا فضل تعريفنا بتكوين اعدائنا ، او بمن نجرؤ على تسميتهم بأعدائنا . ان عليها ان تعلمنا كيف نحط بانظارنـا على الآخرين بتسامح وباقصى انتباه ومودة . وبعد ان ننتزعها وندوسها علينا ان نحتفظ بذكراها ونتقطع عن النظر الى انفسنا على اننا ابنـاء الخير الكوني .

أحيانا كنت أفكر ان ليهود اسرائيل حقوقا وتفوقا على الآخريـن لانهم نجوا من حملة ابادة . هذه لم تكن فكرة مرعبة بل كان خطأ . لان الالم ومذابح الابرياء التي عانينا منها خلال حياتنا لا تعطينا أي حـق على الآخرين او اي نوع من التفوق عليهم . واولئك الذين عرفوا ثقل الاهوال على اكتافهم لا يحق لهم ان يقمعوا اشباههم بواسطـة المـال او السلاح ، لان هذا الحق لا يملكه وبكل بساطة أي مخلوق على وجه البسيطة .

فيما يتعلق بيهود اسرائيل يحدث معي هذا . اذا تكلم احد ما ضدهم اشعر بنوع من التمرد والاهانة . يبدو لي ان عائلتي بالذات هي التي تهان . لكن اذا تكلم احد عنهم باعجاب وود فاني اشعر في الحال باني لا اشاركه رأيه واني مع الطرف المقابل .

لقد احببنا اليهود الذين ذهبوا الى اسرائيل بعد الحرب واشفقنا عليهم لاننا فكرنا انهم نجوا من حملة ابادة ، وانهم كانوا بلا مأوى ولا يدرون اين يذهبون . احببنا فيهم ذكرى الالم والضعف والخطوة التائهة والاكتاف المثقلة بالاهوال . وهذه السمات هي التي نحبها اليوم في الانسان . لم نكن مهيئين على الاطلاق كي نراهم ينقلبون امة قوية وعنيفة وعدوانية ومنتقمة . كنا نأمل لهم ان يبقوا بلدا صغيرا واعزل وان يحافظ كل منهم على سماته الهزيلة والمريرة والتاملية والمنعزلة . ربما لم يكن ممكنا . غير ان هذا التحول كان من ابشع الامور التي جرت .

عندما يتكلم احدهم عن اسرائيل باعجاب اشعر باني مع الطرف الآخر . فقد فهمت فجاة ، ربما بصورة متاخرة ، ان العرب كانوا فلاحين فقراء ورعاة . أعرف اشياء قليلة عن نفسي ، لكني اعرف بكل تاكيد اني لا اريد ان اكون الى جانب اولئك الذين يستعملون السلاح والنقود والثقافة في سبيل قمع الفلاحين والرعاة .

ان غريزتنا تدفعنا للوقوف الى جانب هذا الطرف او ذاك . غير انه من المستحيل ربما اليوم الوقوف الى جانب هذا الطرف او ذاك . فبنو البشر والشعوب يتعرضون لتحولات غريبة وسريعة وبشعة . والاختيار الوحيد الصالح بالنسبة لنا هو الوقوف الى جانب اولئك الذين يموتون ويعانون من غير ما ذنب . قد يقال انه اختيار سهل ، لكنه الاختيار الوحيد ربما المهيأ اليوم لنا .

« رأي يهودي مختلف »

وفيما يلي رد ليو ليفي في « الاسبرسو » بتاريخ ٢٩ ـ ١٠ ـ ١٩٧٢ :

لنبدأ بالتخلص من حكم مسبق ، لا بل من حكم تاريخي زائف . فليس من الصحيح على الاطلاق ان اليهود ذهبوا الى اسرائيل لانهم « نجوا من حملة ابادة » ، ولانهم كانوا « بلا مأوى ، خطواتهم تائهة وأكتافهم تثقلها الاهوال » كما قالت ناتاليا جنزبرغ منذ فترة في مقال لها ـ جميل بالفعل ـ في جريدة « لاستامبا » . ان هذا الاطار « لدولة اقامها لاجئون » ، ليس الا لوحة دعائية سمحة واليوغرافية انتجها الخبث اليهودي من اجل استهلاكها من قبل البرجوازيات الاوروبـ ـ اميركية بعد الحرب العالمية ، ولغاية واعية هي استغلال الضمائر الفاسدة لاناس لم يعرفوا او لم يرغبوا في منع المذابح النازية ، وذلك لصالح الصهيونية . واذا كان سبب اقامة دولة يهودية على ارض عربية منذ ثلاثة عشر قرنا هو الضرورة ـ المعنوية او المادية او الانسانية ـ الداعية لتقديم ملجأ للمشردين او لمن « نجوا من عملية الابادة » فلا بد ان يكون الحق اذن مع اولئك العرب الذين يقولون : من غير العدل ان يجعلونا ندفع ثمن اخطاء الآخرين . والحقيقة ان اولئك الذين نجوا من الابادة لا يتعدون بضع مئات الالاف في اسرائيل ، اي انهم قلة قليلة ، كما انه لا يوجد بينهم جماعات او افراد اساسيون ، من اولئك الذين خلقوا ـ وما زالوا يخلقون ـ ثقافة اسرائيل ، او من اولئك الذين يصنعون اليوم السياسة الحالية « العدوانية والانتقامية » .

نحن الذين بقينا رغم كل شيء صهيونيين ، نرفض باحتقار هذا الوصف الذي يدعي ان اسرائيل ليست الا نتاجا بائسا وذليلا من نفايا اللاانسانية تحول فيما بعد الى كولونيالية جديدة « مرعبة » . لقد اخترنا يهوديتنا في اوربا ، قبل النازية بكثير . نحن الذين قرانا موسى هيس ، اشاد هام ، تيودور هرتزل ، مارتن بوبر ، بوروشوف . وفي ايطاليا قرانا دانتي لاتيس ، الفونسو باشيفيشي ، ذهبنا الى فلسطين ، نحن « اليهود اليساريين » ، ومنذ ذلك الحين ، ليس على اننا لاجئون او فارون ، بل على اننا طلائع انسانية (اومانيزم) جديدة ـ قديمة ، وليس على اننا « بلا مأوى لا يعرفون اين الذهاب » ، بل لنؤكد هناك مثلنا الاشتراكية وما يميزنا ذاتيا من الناحية العرقية ، ذلك كما يريد ان يفعل الفلسطينيون اليوم بالذات .

كنا نعلم أشد العلم ان اكثرية عرب فلسطين كانوا من الزراع الفقراء والرعاة (ولكن تجار وأفندية ايضا) ، ولذلك فاننا لم نذهب لاستعمارهم ولكن لنضع انفسنا على نفس مستواهم بما انه قد سبق لنا وان تركنا وراء ظهورنا فكرة قمع اي اخ لنا مسلما كان او مسيحيا، ساميا او آريا ، وبواسطة تفوقنا الاقتصادي والثقافي او العسكري . وان سني حياتي السعيدة هي تلك التي قضيتها آنئذ هناك تحت خيمة الكيبوتز : الذي لم يكن حصنا كما هو اليوم او شركة زراعية غنية يملكها اليهود ويعمل فيها كامبيسينوس عرب ، بل كان تجربة مساواة عمالية ، يمكن تخمينها بسهولة .

بعض رفاقنا من ابناء مدينة تورينو ذهب آنئذ ليقاتل في اسبانيا، بينما كان آخرون يذوون في سجن ريجينا شيللي في روما . اما نحن فقد القينا ليسانساتنا على اعشاب القراص وبدانا نعمل باجسادنا وبكل قسوة الى جانب العمال العرب في مزارع برتقال « الاسياد » . وكان بين اولئك الاسياد آنئذ يهود وعرب : لان حدود الطبقة لا تتوافق، او انها لم تكن تتوافق على أقل تقدير ، مع حدود العرق .

ولم يحدث الا بعد هذا بكثير ، بعد الحرب العالمية ، ان اغتنى اليهود وهرب العرب ، وفي العشرين سنة الاخيرة فقط نتج هذا الاختلاف الشاسع في المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، فنحن كنا خلف حدود دولة اسرائيل الجديدة ننعم بما يأتي من « تسويات المانيا » ومن « التبرعات » السخية (لكن المفرضة سياسيا) القادمة من اميركا ، بينما كان العرب من طرف الحدود الآخر ، واولئك هم اللاجئون حقا ، في الصحراء ، وقد اجبروا على الاسترخاء والحقد ، أي على ان يعيشوا في وضع اسوأ من وضع « الرعاة والزراع » ، ولم يحدث هذا بسبب سوء نية البلدان العربية التي استضافتهم ، كما يدّعي البعض اليوم ، بل بسبب تخلفهم المأساوي . وقد سبب هذا التحول ما يمكننا تسميته « خطيئة الشهوة » . لكن هذا لم يكن يبدو آنئذ بهذا الشكل ، خاصة واننا كنا نعيش نحن ايضا قساوة الجوع او ما يشابه الجوع بما اننا استقبلنا وقتها اكثر من مليون من اليهود الفقراء والمعدمين الذين أتوا من كل القارات وبعد أن استقبلنا قبلها من نجوا من المذابح الهتلرية . وهكذا أتى الاتفاق الذي عقده بن غوريون في أوائل الخمسينات مع الرئيس الاميركي آنئذ ايزنهاور ومع ادیناور، والذي قدم لاسرائيل التي كانت حتى ذلك الحين « عزلاء ومنكمشة » بالفعل ـ وكما تقول جنزبرغ ـ ماركات المانية واسلحة غربية ، أتى ذلك الاتفاق ليبعد اسرائيل عن ترك بساطتها البدائية في الحياة وعلى ترك حيادها البدائي .

ونضيف ان لا بن غوريون ولا احدا من زعماء الامس او اليوم ، غولدا ، دايان ، كانوا من اللاجئين ، كما لم يكونوا ممن « لا يملكون بيتا » خلال طفولتهم الروسية او الاميركية او الفلسطينية . ولم يكن اعتزازهم القومي اليهودي آنئذ يختلف عن اعتزاز الوطنيين الفلسطينيين العرب اليوم . لكن اولئك الزعماء يرفضون اليوم الاعتراف بشرعية « الكيان القومي الفلسطيني » لانهم يريدون الآن ضم كل الاراضي الفلسطينية . ومن الواضح ان رفضهم هذا مدمر بالنسبة لقضية ايجاد حل منطقي للصراع . غير انه لا بد من الاعتراف بان هذا الرفض يرتبط بصورة غير مباشرة بموقف الحب الغيري المقيت الذي يتخذه البرجوازيون المتخمون (والاحزاب الاوروبية بصورة عامة) ، والذين سبق لهم وان رفضوا الصهيونية على انها حركة اليهود القومية لانها نشأت بعد خمسين سنة على نشوء حركات التحرر القومية في اوروبا ، ولهذا فهم يرفضون اليوم الاعتراف بهذه

الصفة حتى بالنسبة للحركات العربية . ان مشاعرهم لا تتحرك ، او انها لا تبدو انها تتحرك ، الا ازاء البؤس المادي ، وهكذا فانهم يلوون جوهر المشكلة الاساسي .

والفدائيون الفلسطينيون على اية حال يقولون بوضوح انهم لا يناضلون في سبيل الوصول الى رخاء فارغ ، بل في سبيل الدفاع عن كرامتهم وثقافتهم وحضارتهم التي تعني بالنسبة لهم امتلاك الارض التي عاشوا عليها منذ قرون عديدة . اما بالنسبة لليهود ، فقد كان بوسعهم الاقامة في « ارس اسرائيل » (كما يسمون فلسطين منذ قرون) وبعد منفى طويل ، لكن ليس لان لهم حق المتشردين ، بل فيما اذا استطاعوا اعلاء شان حقوقهم التي كانت اخلاقية بصورة تامة ، اي فيما اذا هم تكيفوا باقوالهم القائلة « وستحب صديقك حبك لنفسك » ، « لن تقمع الغريب » ، والتي فرضتها عليهم التوراة على انها شرط مسبق لحصولهم على ملكية الاراضي الكنعانية ـ والتي لم تكن بلادهم ـ قبل ثلاثة آلاف سنة .

وهل كان بوسعنا نحن ـ احفاد الانبياء الذين كانوا رعاة ، وابناء الفريسيين والاحبار الذين كانوا علماء وصناعا يدويين ـ ان نعطي العالم فيما لو بقينا فقراء واتقياء ، « انموذجا » للتعايش بين امتين وثلاثة اديان ؟ كنا نعتقد بهذا ، وهناك من هو قائم حتى الآن على اعتقاده هذا . بما ان نشاة اسرائيل لم يقدرها هتلر ، بل تقدرت من داخل ثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا .

ان تصاعد الصراع ودوامة البغضاء والثار تبدو اليوم وكانها تبرهن على حتمية بروز انموذج مختلف قاس وعنيف من نماذج التقابل العرقي ، ذلك كما يحدث على اية حال في نواح اخرى من العالم . غير ان هذا يناقض كل التناقض ما يجري اليوم ويظهر في واقع الاحداث وفي الاحتكاك اليومي بين الشعبين « الساميين » . فرغم كل شيء لا تجري اليوم في شوارع اسرائيل وحتى في « الاراضي » التي بقيت ماهولة بالعرب « ومحتلة » بصورة غير شرعية من قبل الجيش الاسرائيلي اية تظاهرات ـ بين العمال وعلى المستوى الشعبي ـ للعداوة العرقية او انفجارات عنف وارهاب . واذا ما تركنا موجة الارهاب المدمرة التي تجري في اوروبا فان الثقة ما زالت قائمة وما زلنا نتمناها وهي تتجه نحو امكانية ايجاد تعايش بين دولة اسرائيلية تعود منطقيا الى حدود الـ ١٩٦٧ وبين فلسطين مستقلة يمكن لمساعدة اليهود التقنية ان ترفعها خلال وقت قصير من وضع التاخر الاقتصادي . فلماذا لا يقوم السلام الآن وفي الحال اذن بين الوطنيين الفلسطينيين وبين اليسار الاسرائيلي بما انهم ينطلقون من منطلقات متشابهة ؟ الصعوبة ـ او بالاحرى الذنب ـ تكمن في كبرياء الزعماء الاسرائيليين المبررة لكن اللامتناهية وفي رفضهم المتعالي والمقيت للتفاوض مع الفلسطينيين . انها « مصلحة الدولة » التي يبدو انها لوت خلال ايام ميونيخ الفاجعة حتى مشاعر غولدا ماير الامومية نحو ابنائها بالذات . لكن جذور هذا الانحراف انما تكمن في السيادة الحالية للتكنوقراطية وللديناموقراطية ـ اي لسيادة السلطة التي لا يعترف بها الا للقوة العسكرية ـ وفي ما ينتج عن هذا من « لقاء » غير انساني بين الكتل التي تنخر الانسانية وتزيد من حدة آلامها .

ان الامل ، والامل الوحيد ، يمثله اولئك الذين يكتشفون من جديد عبرانيتهم الاصيلة ومعها الحق والواجب اللذان قالت بهما التوراة والداعيان لـ « النقد الذاتي » حتى لامتهم بالذات . يمثله اولئك الذين يقدمون اليوم على تحدي التقليدية القاسية واتهام الروح الانتصارية التي تسود اليوم وتقتل ، ذلك ليقفوا الى جانب الاموات ، اولئك الذين سينتصرون في الغد . يمثله اولئك الذين اصبحوا اليوم الاكثرية في العالم ، الذين حملتهم مذبحة ميونيخ المزدوجة ومقتهم للاعتداءات الاسرائيلية الثارية على الفلسطينيين واللبنانيين العزل ، على الوقوف مع منطق الاموات ، وهو منطق اقوى من منطق الاحياء . ان موتى الحروب لا يريدون ان يستخدموا من قبل الاحياء في سبيل القيام بحروب اخرى . ان الموتى يصرخون في وجوه الاحياء كي ينهوا من امر كل « مذابح الابرياء » ، من اليهود ومن العرب ، من الصهيونيين ومن الفلسطينيين ، والبوذيين والبروتستانت . لكن انهاء المذابح لا يتم بواسطة اجراء مذابح اخرى او بواسطة اللجوء الى العمليات البوليسية ، ولا حتى بواسطة السرور الوهمي لان « النظام يسود في وارسو » ، او بواسطة القمع الخلقي والشكلي . لان الامر يتم ان نحن اصغينا لاتهامات ميتات بلا فائدة وللاحتجاجات على ما تم من تماد ولليأس من توسلات القلوب الانسانية التي تجعل الحياة احيانا بلا معنى .

راي زوجة مورافيا

وهذا رأي داتشا مارايني زوجة البرتو مورافيا في حديث خاص معها :

ـ سمى بعضهم هنا (جماعة المانيفستو) عملية ميونيخ عملية حربية بالمعنى الكامل للكلمة ، خاصة وان غرضها الاساسي كان تحرير سجناء عرب يعرف الجميع الطريقة التي اعتقلوا فيها . ما هو نوع العملية في رأيك انت ؟

مارايني ـ « انها عملية ارهابية ولا شك . لكن يجب ان نرى اولا ما هو دور العمل الارهابي . هناك لحظات تاريخية كان للارهاب فيها دور فائق الاهمية . هناك مثال ارهاب الماو الماو الذي تكلمت عنه في حديثي مع البرتو (راجع حديثهما في « الاسبوع العربي » العدد ٦٩٧) وهو لم يوفر حتى ابناء البلاد بالذات . اولئك كانوا يرمون الى ايقاظ ضمائر الناس اللاسياسيين والى حملهم على المشاركة مع هذا الطرف او حتى مع الطرف المعادي . وقد جرى هذا محليا . اما في المجال العالمي فالامر يختلف ، انه اشد تعقيدا وصعوبة .

على اية حال انا لا ارى الان في عملية ميونيخ نواحي سلبية او ايجابية . اقول انها عملية ارهابية وان الارهاب وسيلة استخدمت في بعض الفترات التاريخية وكان لها مبرراتها . يجب اذن ان نعالج الامر مرة بعد اخرى ، لان هناك ارهابا يمينيا ايضا .

ـ وهل ترين مناسبا استعمال كلمة الارهاب في هذه اللحظة التي تتخذ فيها الكلمة معاني عديدة ، اكثرها سلبية ؟

مارايني ـ « انها كلمة مثل غيرها من الكلمات . انها تعبير ليس بالايجابي وليس بالسلبي . مثل كلمة حرب . الحكم عليها يأتي فيما بعد . انا مثلا ضد الحرب في حد ذاتها ، غير ان هناك حالات لا بد معها من الحرب . الحرب ضد النازية كانت مثلا امرا ضروريا . الكلمات تتخذ اذن معناها في اللحظة التي تستعمل فيها » .

ـ وهل يبرد في رايك امر لفت نظر الراي العام العالمي القيام بعملية مثل عملية ميونيخ ؟

مارايني ـ « من الواضح ان ارهابيي ميونيخ يعطون اهمية خاصة للرأي العام العالمي . الماو الماو لم يلتفتوا كثيرا الى هذا الامر . جل همهم كان ايقاظ وعي الاميين من مواطنيهم الزنوج ولهذا استعملوا العنف . كانوا يرون المسالة محصورة هناك ، لم يكن يهمهم ان يعرف الاميركيون او الالمان حقيقة ما يحدث في المنطقة . غير ان الفدائيين يهتمون بالراي العالمي . ربما كانوا على حق ، خاصة وان العالم اليوم متقارب الاطراف ، فما يحدث في اليابان يهم من يعيش في ايطاليا ، وبالعكس . والفداليون يرون ان اظهار قضيتهم امام الرأي العام العالمي ضروري لبقائهم . ومنظماتهم بحاجة لدعم دعائي عالمي . على اية حال ما زال من العسير اصدار حكم ما ، لان الحكم يجب ان يكون تاريخيا . خاصة وان كثيرا من التفاصيل ما زالت مجهولة . على اية حال فان البوليس الالماني تصرف بطريقة وحشية وهوجاء » .

ـ اذا حاكمنا الامور من الناحية النظرية الاترين ان كان على اسرائيل تحرير السجناء ؟

مارايبني ـ « من الناحية النظرية كان عليها ان تفعل ذلك. لا ادري ما هو الظرف السياسي الشامل ، فانا لست سياسية واجهل كثيرا من التفاصيل . على اية حال اعلم ان فولدا مائر صرحت بان جميع الاسرائيليين جنود . هذا يعني ان الرهائن لم يكونوا اشخاصا عزّل او مجرد رياضيين او سياح . كانوا جنودا فعليين . وعملية ميونيخ تصبح بهذا عملية حربية بين جنود فعليين . ان بلدا مثل السويد رضخ امام طلبات الاوستاشا ، فمن الواضح في مثالهم انهم فضلوا الحفاظ على حياة ١٠٠ شخص على اطلاق سراح بعض السجناء » .

ـ وهل ترين ان الحملة التي سمت نفسها بمضادة للارهاب مبررة في هذه الايام ؟

مارايبني ـ « لا يمكن للانسان ان يتحمل مثل هذا بالفعل . خاصة وانه لا يمكن في السياسة اصدار احكام اخلاقية شاملة كان نقول هذا خير وهذا شر . لكن صحف اليمين هنا انهالت بعناوينها الكبيرة لتردد « ارهاب ، قتل . دماء .. » انها كلامية بحتة . وهم انفسهم لا يعتقدون بما يقولون ، لكنهم يريدون الاستفادة من الوضع . على اية حال فحملتهم كانت رهيبة وبشعة » .

ـ الا ترين ان لها اساسا عنصريا ايضا ؟

مارايبني ـ « بالطبع . كثيرا ما يظن الانسان ان العنصرية زالت وانمحقت . بيد انه تكفي شرارة واحدة وهاكم نار العنصرية تندلع . وقد كان لها الان في المانيا طابع اتجه ضد ما هو عربي ، وبالطبع فهذا غبي ، لان العنصرية غبية على الدوام » .

ـ وهل تعتقدين بما يقال من ان هدف الاعتداءات الاسرائيلية هو الثار لعملية ميونيخ ؟

ما رايبيني ـ « انه مجرد عذر . واسرائيل تعرف ان ايلول الاسود لا يوجد هناك . تعرف انه في انحاء العالم . ومن مات هم اللاجئون. بيد ان علينا الا ننسى ايضا مسؤولية بعض البلدان العربية في المسالة بصورتها العامة ، فكثير من هذه البلدان رجعية وترفض حلا لمشكلة اللاجئين . ليس كل العرب متماثلين . هناك بلدان مثل المغرب متخلفة الى ابعد الحدود . وهناك بلدان متقدمة ..»

ـ والامم المتحدة ، هل بوسعها ايجاد حل للمشكلة ؟

مارايبني ـ لا ، على الاطلاق ، ليس للامم المتحدة سلطات واسعة . وربما كان هذا سليما . ليتها تستطيع . لكن هذه المشاكل تحل محليا وليس من الاعلى ..»

ـ والحل ؟

ما رايبني ـ « اؤمن بحل عرفات . دولة علمانية للعرب واليهود اتكلم كانسان لا يعرف طبعا الكثير عن المشكلة . لا بد من الذهاب الى المنطقة ومراقبة الامور عن كثب . »

ـ « والدول الكبرى » ؟

مارايبني ـ « يبدو انها غسلت يديها من الامر . والا لوجدت المشكلة حلا لها . كما ان لهذه الدول مصالح على ما يبدو في بقاء الوضع على ما هو عليه » .

ـ قمت مرة بالاشراف على ترجمة ايطالية لبعض شعراء المقاومة، ما هو رايك بهذا الشعر ؟

مارايبني ـ « يجب ان اقول اولا ان قراءة الشعر يجب ان تجري في لغته الاصلية . على كل شعر المقاومة كما قرأته في الايطالية مبالغ في رمزيته وفي لا واقعيته . وهذا غريب . ربما كان هذا من خصائص الشعر العربي بصورة عامة . ثم انه شعر يميل نوعا ما الى الغنائية . وهذا ما يبعد الشعر في العينية الغربية عن الواقع ومشاكله . انطباعي العام اذن انه شعر شكلي اكثر مما هو واقعي».

البرتو مورافيا ووائل زعيتر

ابرزت جميع البيانات والمقالات التي كتبت في الصحف الايطالية في ذكرى وائل زعيتر صداقة الشهيد مع الكاتب العالمي البرتو مورافيا . وقد كتب مورافيا بالفعل كلمة تابينية في مجلة «اسبرسو» الايطالية نشرت الى جانب المقالة الاخيرة التي كتبها الشهيد الراحل وظهرت تحت عنوان « وصية مناضل فلسطيني» .

جاء في كلمة مورافيا : « كان وائل زعيتر صديقا لي وموته لم يثر الامي وحسب بل لوعني ايضا ، وكيف اقول ؟ لوعني عقائديا . ذلك اني عرفت وائل معرفة جيدة وكنت اراه كثيرا من الاوقات هنا في روما ، فضلا عن اني قمت معه برحلة الى البلاد العربية بمناسبة مقابلتي مع عرفات . توقفت معه في لبنان وفي سورية وفي الكويت. كان وائل فلسطينيا يحمل جواز سفر اردنيا ، لكن فيه كانت تكمن شخصية يصعب تسميتها بهذا الاسم او بذلك ، هذا ان لم نتكلم عنه على انه تجسيد حي للصفات العربية المحببة والخيالية . وفي الواقع فقد كان وائل فارسا شهما ، خياليا ومدهشا ، بسيطا وغير واقعي ومحترما . كانت طيبته وروحه الفكهة وخياله وطبع الرحالة الذي فيه تحفل كلها على التفكير بعالم بلا حدود وبلا قوميات ، بعالم واسع وديني ، كان الناس يعبرون فيه عن اخائهم لبعضهم وكان الواقع فيه يشبه مملكة الساحرات الاسطوريات : من هذا الواقع يستطيع الانسان ان ينتظر اية مفاجاة . يبدو اني قد سمعت عن غير ارادة مني وصفا للعالم العربي الواسع لحظة كان في روعته التاريخية ، وفي الواقع فان وائل ، بسيطا كما كان ، وفقيرا كما كان ، يحمل الانسان على التفكير بذلك العالم الغني والشامل الذي تلاشى . كما ان وائل كان يعرف انه انسان خارج الزمن ، ولهذا كان ـ كما يقال ـ يلعب نوعا ما . خلال رحلتنا في الطائرة الى الكويت لم ينقطع وائل عن القراءة في جزء من اجزاء الفضيلة وليلة . كان يحدثني غالبا عن ابن بطوطة الرحالة الكبير الذي كان وائل على الارجح يحسده على حريته اللامتناهية . وعندما وصلنا الى الكويت ، والى بعض مدن الجزيرة الشبيهة ب « تيكسنا هوستون» ، ثم الى البصرة ، المدينة القديمة المنحلة والمهترئة كنت اراه وهو يلاحق كل الوقت شبح الحضارة العربية الرائع ، كما كانت يوما ما وليست كذلك بعد .. »

« وصية مناضل فلسطيني »

وهذه ترجمة مقال الفقيد وائل زعيتر كما نشرته مجلة « الاسبرسو » (٢٢ـ١٠ـ٧٢)

« يتصف موقف الصحافة الغربية ازاء الوضع في الشرق الاوسط بكون مقياس الاحكام فيه مزدوجا : فهناك مقياس لصالح العرب وآخر لصالح الاسرائيليين . وقد قدمت احداث ميونيخ مؤخرا مثالا واضحا عن هذا الواقع . وباستطاعتنا ان نرى شيئا عن الامر في « تعداد الموتى » . فقد كان عدد ضحايا مذبحة المطار بالنسبة للصحافيين الغربيين تسعا وليس اربع عشرة ضحية (او ست عشرة اذا اردنا اضافة الالمان) كما كانوا في الواقع : كما لو ان الفدائيين فقدوا صفتهم الانسانية بصورة اوتوماتيكية .

ثم لماذا القبول بالرواية الالمانية ـ الاسرائيلية التي تدعي ان الرهائن سيلقون الموت الاكيد ما ان يطأوا ارضا عربية ؟ والحقيقة هي العكس تماما : ففي احدى البلاد العربية لا بد ان تكون حياتهم في امان ، بينما حملت المناورة التي حيكت في المطار الرهائن نحو موت اكيد .

والسؤال الذي كان لا بدّ من طرحه ولا بد من طرحه الان هو : مصلحة من يخدم موت الرهائن ؟ ليس مصلحة الفلسطينيين وهدفهم كان تحرير رفاقهم السجناء ، بل مصلحة اسرائيل من كل بد لان موتهم يفسح امامها المجال ، كما حدث فعلا في الواقع العملي ،كي تقوم باعتداءاتها الوحشية على مخيمات الفلسطينيين وعلى القرى السورية ـ اللبنانية ، وكي تلحم جبهتها الداخلية وتستعيد عطف الراي العام الدولي .

ونذكر من جهة اخرى ان مثل هذه التصرفات ليست جديدة على الحركة الصهيونية : فقد منع الانكليز خلال الاربعينيات اللاجئين اليهود القادمين على متن الباخرة المسماة « الوطن » من النزول الى

حيفا في سبيل نقلهم الى جزيرة قريبة . عندما امرت الهاغانا باغراق الباخرة من اجل هز الراي الدولي والتاثير في اليهود داخل فلسطين. ذلك بعد ان تدعي أن العملية كانت عبارة عن عملية انتحار جماعي قام بها كل القادمين على متن الباخرة لانهم « فضلوا الموت على الابتعاد عن الوطن » ، كما قال الزعيم الصهيوني كيمش في Secret Raods الصفحة ٥٤ . ثم لا بد وان يطرح هذا السؤال ازاء التحريف الدعائي لكل خبر : لماذا يعطى لضحايا ميونيخ قدر اكبر من الذي يعطى لضحايا الاعتداءات الجوية الاحدى عشرة (اعتداء جوي مقابل كل اسرائيلي مات) التي قامت بها اسرائيل على لبنان وسورية ؟ ربما لان النساء والاطفال الذين سحقت المدرعة الاسرائيلية سيارتهم عمدا في لبنان كانوا اقل براءة من الرهائن الاسرائيليين ؟

وبما ان هناك عموما مقياس تقدير مزدوجا فان الصحافة وبقية وسائل الاعلام الغربية تميل دائما الى فصل الاحداث ـ مثل حادثة ميونيخ مثلا ـ عن السياق العام . والفصل بين السبب والنتيجة يعني في الواقع ان يضع الانسان في الظلام ما هو شديد البساطة والوضوح .

ثم لا يمكن تصنع الاعتقاد بان ما حدث في ميونيخ كان انفجارا للعنف داخل وضع سلام : فكما يعلم الجميع ـ او كما يجب عليهم ان يعلموا ـ العنف في الشرق الاوسط وباء انتشر منذ اكثر من خمسين سنة ، وعلى وجه الدقة منذ ان قرر الغرب ضمان مصالحه الاستراتيجية على حساب شعب لم تكن مصالحة آنئذ ، كما هي حالها الان ، ماخوذة باي اعتبار .

من هذه القرصنة التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني ياتي الخطر ، لان الخطر ليس خطر اولئك او هؤلاء من الفدائيين ، خاصة وان ردود افعالهم ، مصيبة كانت ام خاطئة ، انما هي دائما ردة فعل على ظلم ارتكب .

واود ان اذكر هنا بالمعطاة الرئيسية في الوضع في الشرق الاوسط وبكل اهميتها : فالشعب الفلسطيني ابعد عن ارضه التي عاش عليها منذ قرون عديدة . ونحن نعرف ان شعبا ما يتميز بارضه ، ووطنه ضروري من اجل تمييزه . واذا كان من المستطاع ان يتخذ العالم صورة جديدة اخرى يزول فيها مثل هذا النوع من التمييز ، فان لا احد ينكر ان الامور تسير اليوم على هذا المنوال ، ولا احد يدهش اليوم عندما يرى انسانا يجد وطنه مهددا فيدافع عنه ولو كلفه الامر حياته .

لنتخيل في هذا السبيل ان شعبا عريق التقاليد مثل الشعب الفجري يطالب في مثل هذا القرن بمنطقة ايطالية تكون وطنا له: مثل منطقة التوسكانا . ولنتخيل ان مطالبه هذه مدعومة من قبل دول كبرى ، ثم لنتخيل ان شعب توسكانا عاجز عن دفع هجرة الفجر التي تمولها جماعاتهم المنتشرة في انحاء العالم ، وان الشعب التوسكاني طرد خارج ارضه واجبر على الهجرة بعد الحرب العالمية الثانية ، خاصة وان هناك في الراي العام الدولي عطفا على الفجر بسبب الالام التي قاسوها والان هناك ٥٠٠ الف فجري قتلوا على يد النازيين . فهل يقف الجميع موقف اللامبالاة من مصير هذا الشعب كما وقفوا موقف اللامبالاة ازاء مصير هنود اميركا وشعوب اوستراليا والهنود في البرازيل .. الخ .. والتي ضحي بها جميعا كما نعلم باسم « حضارة اسمى » . ماذا على هذا الشعب ان يفعل ؟ بوسعي التخيل ان البعض سيقولون ان هذه ليست الانخيلات سياسية ، لكن هذا هو الذي حدث في فلسطين . واخفاء هذا عن اعين الراي العام لا يفيد الا في خدمة الارهاب المتخفي تحت اسم العدوان الثاري. ان ما قلته حتى الان يرمي الى تفسير ماوقع وليس الى تبريره ، لانه ليس من هدف هذه الرسالة تقدير احداث مفردة مثل تلك المتعلقة بالسوريين واللبنانيين الذين اسرهم الاسرائيليون في شهر تموز الماضي ، او مثل تلك المتعلقة برهائن ميونيخ .

ويجب ان نذكر هنا ان للفاجعة الفلسطينية جذورا هامة في الغرب . احد هذه الجذور هو اللاسامية وهو احد الاسباب التي دفعت اوربا التي تعضها عقدة ذنبها الى تاييد خلق « دولة اسرائيل ». والواقع ان هذا يعني الانتقال من اللاسامية الى اللا عربية . اما العرب فلم يكونوا ابدا لاساميين لانهم هم انفسهم ساميون .

لقد شنت حملة كبيرة في الغرب ضد العرب مقنعة بالرعب من ارهاب الفلسطينيين . وحدث ضجيج كبير وارتفعت الاصوات عالية وفيها لهجة الادانة . والحقيقة ان الضجيج الكبير يثار لان ما من انسان يريد سماع صوت ضميره . واذا ما خفت هذا الضجيج سنرى ان الارهاب لا يوجد بين الفلسطينيين ، لان الشر هو آخر ، وهو نفس الشر الذي سبب للانسانية خسارات واسعة مثل افناء الهنود الحمر وشعوب اوستراليا وغيرهم ، وهو نفس المنطق الذي اراد تدمير اليهود في البارحة والفلسطينيين اليوم . والفاجع هنا ان شعبا قاسى بسبب شعب اخر ينتقم من شعب ـ كما يقول ارنولد توينبي ـ ثالث بريء ولا يعرف حتى في لغته كلمة « اللاسامية » .ومن المفجع ان اليهود الذين عرفوا ماذا يعني الالم والاهانة لا يحتجون ضد الحركة العنصرية التي تريد التكلم باسمهم . ومن المفجع ومن الطامة ومما يحمل على التشاؤم ان المانيا تقدم لاسرائيل المدرعات ووسائل الدمار بدلا من ان تتخذ موقفا يرضاه الضمير .

كل هذا هيء باسم حضارة اسمى . لكن اولئك الذين يتكلمون عن الحضارة الغربية لا يظهرون انهم احسن ممثليها، فبوسع الحضارة دوما ان تجد اولئك الذين يحولونها الى « شعارات » عنصرية ، كما يفعل ، وما زال يفعل اوائل المستعمرين الذين غزوا شطري اميركا ، والاسرائيليون في فلسطين لنقص في القيم الثقافية والحضارية والاجتماعية ـ السياسية والتاريخية لديهم . هناك من جهة معينة من يتكلم عن الحضارة الغربية وهناك من جهة اخرى اناس مثل غوته الذي نتتبع خطى رحلته الروحانية الى المشرق.هو الذي كان يعانق الحضارة الغربية ومعها « الشرق والغرب ،الشمال والجنوب ، المستريحة كلها على كف الله » هو الذي كان يمجد من بين اسماء الله العليا اسم العادل :

«Sei Von Seinen hundert namen dieser hochgalobet!
Amen » انه حارس الحضارة الحقيقي وليست هي الفازات السامة وقنابل النابالم التي تحرسها .

هناك ايضا القديس فرانشيسكو الذي الف اناشيده ومقطوعاته وتسبيحاته ، والذي كان وما زال يحمل رسالة الاخاء الى العرب، انه هو الحارس الفعلي ، الحارس الاول للحضارة الغربية ، وليس صناع البربريات في فلسطين والفيتنام . كما ان الحضارة لاتستطيع اليوم بلوغ النصر على يد من لا هم لهم في الامس الا الزعيق باحاديث حول « العنصر الافضل » وحول « الدفاع عن العنصر » .

وهم اليوم لا يفعلون الا ارهاب الطلبة العرب والفلسطينيين بشن حملات صحافية ضدهم .

وفي النهاية اقول ان كل هذه التشجيعات التي تلقاها اسرائيل تعكس ميولا سحيقة في القدم . والصوت الصادق ليس هو الصوت الذي يشجعهم على ان يصبحوا عساكر ومحاربين ضد شعوب عليهم ان يتعايشوا معها . ان العالم هو وحدة متكاملة ولا احد ياتي من خارج الكون ، ولهذا فان الشعب الفلسطيني هو من هذا العالم وعلى يهود فلسطين ان يقبلوا العيش معه في دولة ديموقراطية. هذا مما يوفر كثيرا من الدماء ويعني العدالة .

ونحن علينا الا نستمع لاولئك الذين يصدرون صوت حضارة اجش ، بل علينا ان نتبع اصواتا اصدق واعم . انه صوت الصوفي الانكليزي فرانسيس تومبسون الذي كان يرى جميع الاشياء قريبها وبعيدها متصلة فيما بينها بقوة خفية لا تفنى ، حتى « انك لاتستطيع هز وردة من غير ان تحمل الاضطراب الى نجمة » .

* * *

عينا الشهيد ـ الى روح وائل زعيتر

كم اكره نفسي اذ اجلس اليوم لاكتب اليك . كم اكره نفسي

سطو غير مسلّح

قطعت كفي
لم أعد في حاجة اليها
فمهنتي : صناعة الفخار .
وبعدما سطا اللصوص فوق الدار
وكسروا الذي صنعته في بطء
ونهبوا الالوان والذكرى ، وسرقوا النار
ودلقوا الاحلام والصلصال والشمسا
قطعت كفيّ التي قد شكلت :
آنية للماء
آنية للخمر
آنية للزهر
آنية للعطر
آنية للحب
في وضح النهار كان السطو
كانت وجوههم بلا لثام
هادئة ، متزنة . ماسحة بلا تعبير .
أعرفهم ، جميعهم
يمكنني أن أذكر الاسماء والصفات والمناصب
فوجئت عندما رأيت أصدقائي بينهم
وعندما حاولت أن ....
أسكتّ .
(لن أقول كيف !)
وهكذا قطعت كفي الاخرى .

لا تبتئس
يحدث هذا كل يوم
تصفح الجرائد اليومية ..
بحسبة بسيطة ..
عليك أنت الدور ـ حتما .
ربما غدا .. أو ذلك المساء ..
عندما تعود للزوجة ، والاطفال
لا تنزعج
يمكنني أن أذكر الاسماء .
هل تود أن تعرفها ؟

القاهرة — يسرى خميس

اذ اقول اني اكرهها . قتلوك في باحة بناء بيتك المتواضع في الحي الافريقي في روما . لماذا ؟ لانك فلسطيني ، فقير ، لا احد يحميه ولا احد يذود من حقوقه . المرة الاخيرة التي رايتك فيها ، لمحتك من بعيد وانت تسير الهوينا متابطا صحفك التي لم تكن تفارقك . قبلها بيوم ، بل في ليلة ذلك اليوم ، جمعنا الضجر والقرف في مسيرة ليلية تحدثنا فيها عن ذلك الصحفي وعن هذا الصحفي ، عن فلسطين وكيف تعاملها الصحف الايطالية . وكان عليك ان تنقل كثيرا مما قيل في تلك الصحف الى المنطقة التي كنت تمثلها في روما ، الى فتح ، وحدثتني عن قرفك من كل ما يكتبون ، من كل اكاذيبهم وما يلفقون . حدثتني عن قرفك حتى من استغلال الاصدقاء لصداقتنا وللتعاطف مع قضيتنا في سبيل مصالحهم الانتخابية والداخلية البحتة . من يبقى لنا ؟ ليس الا الله الى جانبنا هنا . ولم تنس ان تحدثني عن الله في تلك الليلة . ما احلى صوفيتك الحديثة التي كنت احسدك عليها . حدثتني عن مشاهداتك العلمية تحت المجهر عن الطبيعة الرائعة ، عن الطبيعة القاهرة . اي حنين الان الى تلك الوقفات التي كنت تقفها بين الفينة والاخرى ، توقفني وتقف لتكمل حديثك مستخدما يديك للتعبير ، تماما كما يفعلون في بلدي الحبيب.. اي حنين الان ...

وائل زعيتر . من اوفر الشباب العرب ثقافة في روما . يعيش في ايطاليا منذ سنوات قدم فيها للقضية الفلسطينية مالم تقدمه اجهزة بكاملها تملك من الوسائل المادية مالا يقاس بما كان بوسع وائل ان يحصل عليه لعمله . عمل على تنظيم مؤتمرات ومحاضرات وتظاهرات ، واشرف على اصدار جريدتي « فلسطين » و « فتح» بالايطالية . كان صلة الوصل بين المنظمات الفلسطينية في الوطن وبين الطليعة الفكرية في الغرب : من جان جنيه الى البرتو مورافيا .. قال له احد السفراء العرب مرة متهكما على مظهره غير«الانيق» (وهل انت سفير ؟) ، شكاها اليّ وائل والمرارة تحز في قلبه ، قال هاك ما بوسعنا انتظاره من الاجهزة الرسمية . عندما عقدت ندوة فلسطين في الكويت كان هو مرافق الوفد الايطالي الى الندوة ومنظم برامج هذا الوفد .

احتاجوا لقتلك ياوائل الى ١٢ رصاصة . يا لجسمك الرقيق والمسكين . يالنذلهم . ضربوك ياوائل برصاصتين في ظهرك وانت في طريقك الى المصعد في بناء بيتك ، وعندما التجأت والدماء تقطر من جراحك الى باحة البناء انهالوا عليك كالمجانين بطلقاتهم الوحشية الاخرى . وتمددت اعوامك الثمانية والثلاثون على الارض الرئة قرب اصص الزرع الخضراء . ورأى العالم بأجمعه صورتك المحزنة وانت متمدد ، تحت ابطك حقيبتك ، قرب جثتك الليرات العشر التي هيأتها للمصعد الكهربائي ، والى جانب يدك الاخرى عنقود عنب وقطعة الجبن والخبز التي حضرتها لعشائك الاخير .كان معك ايضا مجلة ـ كما هي العادة ـ وصورة اشعة لجسمك المسكين ، الممدد الان تحت انظار الطب التشريحي .

عشت فقيرا مع ان اموالا لا تحصى ولا تعد مرت بين يديك، كنت تأخذها وتدفعها بنفس اللامبالاة ، واقول بنفس الاحتقار.وكيف لك الا تحتقر النقود انت الجائع المعذب ، انت الصوفي الشرقي وابن عائلة من اعرق عائلات نابلس الصوفية ..

ماذا اراد الانذال من وراء قتل انسان مثلك ؟ هل هي سلسلة ارهابية جديدة ؟ كنت تحس بقرب موتك . هذا ما اكده جارك الايطالي الذي كان يراك وانت تكثر من التفاتاتك بينما تسير .

عيناك العسليتان البراقتان تطلان الان عليّ من عليائك ، وميضهما يؤكد لي جلال شهادتك ، وعمق نظراتهما يزيد في قلبي من هول المصيبة ولوعة فراقك لنا بهذه الطريقة المفجعة . لكني اتوجه اليك وبقلب صادق باطيب تهانيّ لهذه الشهادة الرائعة التي تمكنت من الاستئثار بها . كنت تقوم بواجبك وقد لقيت حتفك في سبيل واجبك .

قبل اشهر كنا نتحدث ياوائل ـ وبوسعك الان ان تذكر اكثر مما يمكن لاي حي ان يذكر ـ عن صراعنا مع اسرائيل . وقلت انت ان اسرائيل تهدف الى الابادة العربية وليس الى الاحتلال وحسب.كنت تشعر بحدس انباك بنهايتك المفجعة . لكن ابشر في عليائك . لا بد للامور ان تتغير . قبل ايام قلت لمورافيا ـ وكنت انت على قيد الحياة ـ ان قوة الظلم التوسعي لدى اسرائيل هي اقوى من قوة التعقل لديها ، وان تلك القوة فيزيائية . فاجابني مورافيا بحكمة « لا شيء يقف في الطبيعة ، هناك توسع وهناك تقلص » . وبعد كل توسع تقلص . فلتبتهل روحك الطاهرة من اجل انتهاء عهد توسعهم.. وليرحمك الله ...

نبيل المهايني